

كيف يعمل بشار الأسد على حرمان السوريين من ذاكرة مدنهم؟

كتبه أحمد سيف النصر | 27 مارس، 2024



عندما دمرت قوات الأسد المساجد والمعالم الأثرية في أنحاء سوريا، كانوا في الواقع يحاولون القضاء على شعور الناس بالانتماء، إذ يرتبط الانتماء بالأماكن الملموسة والذكريات الموجودة بها، ونتيجة لذلك، انخرط نظام الأسد في ممارسات الإبادة الثقافية لخلق نزوحين: جسدي وعاطفي.

إحدى الآليات أن نظام الأسد لم يدمر فقط التراث السوري من حيث المبنى أو المكان نفسه، فقد حاول تدمير الشعور وسلب الناس حقهم بالانتماء، وبالتالي نحن لا نتحدث فقط عن المساجد والبيوت والآثار وغيرها من المباني الرمزية التي تحمل أثر الماضي، وإنما شعور الناس بالمكان الذي ينتهيون إليه.

في هذه المعالم كائنات حية تتحدث إلينا ومن خلالها نتحدث مع بعضنا البعض، إنها أكثر من مجرد أماكن مرئية تمثل الأجيال والحضارات، قد تكون أماكن مقدسة يجتمع فيها الناس للصلوة معاً أو للاحتفال أو دفن موتاهم، وقد تكون ساحات أسواق قديمة حيث العائلات تتاجر مع بعضها البعض لعدة قرون، وقد تكون أيضاً أعمالاً معمارية وفنية رائعة تجسد أفضل ما حققه المجتمع، أو دليلاً صادقاً على أنهم كشعب في الماضي وصلوا إلى لحظات سامية حقاً.

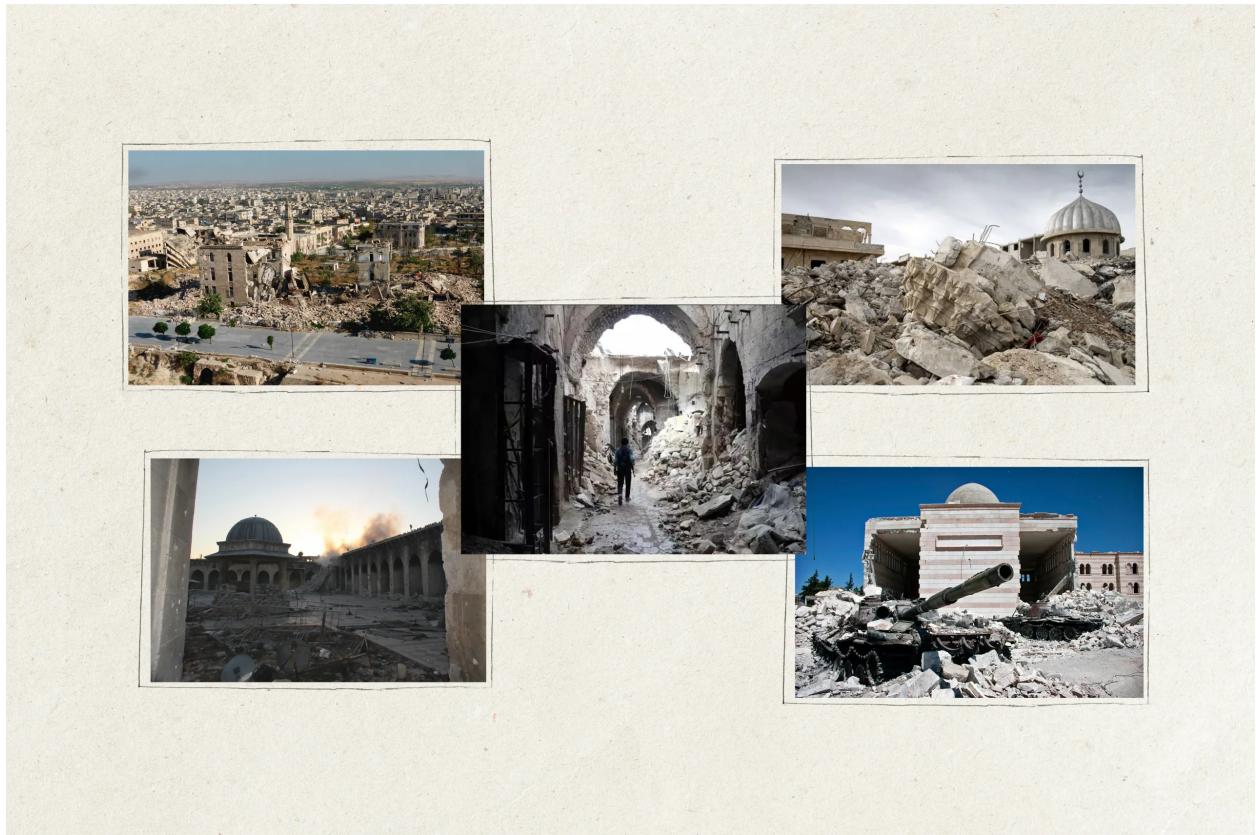


تعليقات السوريين على موقع التواصل على إبادة تراثهم

وبالتالي فقد هدف نظام الأسد من حملة إبادة التراث الثقافي محو الإحساس الجماعي بالذات وقطع الروابط المتأصلة التي تربط الناس ببعضهم البعض وب بتاريخهم وسبل عيشهم وذكرياتهم التي لا يمكن فصلها عن محياهم، وتروي إحدى السوريات التي اضطرت لغادره دمشق في 2012، ثم عادت إليها عام 2016، فتقول:

”عندما عدت في عام 2016، لم أشعر أنني عدت إلى منزلي ووطني، لأن كل ما اعتدت رؤيته يومياً لم يعد موجوداً، حتى الأشخاص الذين كنت أعرفهم والجيران لم يعودوا موجودين.“

كذلك ما يميز التراث هو شعور الناس أن هذا الأثر الملموس تم نقله إليهم من جيل إلى آخر، وبالتالي أي اعتداء عليه، يكون اعتداء على كرامة الناس وعلى القيمة التي ولدها المكان عبر الزمن، ومثلما غير أحد السوريين حين رأى المسجد الذي اعتاد الصلاة فيه قد دمرته طائرات النظام: ”إذا كنت تعرف المسجد قبل الدمار ورأيته الآن، فإن الأمر يشبه شخصاً فقد طفل أو جزء من جسده.“.



وقد عبر الكثير من السوريين عن شعورهم بالغيرة رغم أنهم لم يغادروا مدنهم، لذا يرى المتخصصون في التاريخ والآثار أن إبادة التراث السوري سيكون لها تأثير عميق على الهوية، والأهم حرمان الأجيال القادمة من إرث أجدادهم والإبداعات الرائعة لكل من سبقوهم، فهذه الإبداعات التي دمرها نظام الأسد، هي ذاكرة ورموز تربط السوريين ببعضهم البعض.

مدن بلا ذاكرة.. التدمير الاستعراضي

يلاحظ أن خطط الأسد الحالية لإعادة ترميم التراث الذي هدمه تقوم على قراءة انتقائية للتاريخ البعيد والحديث وإعادة كتابة الأحداث أو دفن تواريخ محددة، ونرى هذا الأمر بكل وضوح في مشاريع إعادة الإعمار.

فعلي سبيل المثال، عند إعادة ترميم الجامع الأموي في حلب، محيت الفترة التي قصف فيها النظام الجامع، وأجبر الناس على نسيان آثار الاعتداء، وأصبح [الشباب](#) الذين قاموا بحماية المسجد عندما كان يتعرض للقصف، ووضعوا أكياس الرمل وبنوا جداراً وقائياً أمام قبر زكريا وغيرها من وسائل الحماية، في طي النسيان.

بينما العكس حدث عند ترميم موقع تدمر الذي دمره تنظيم الدولة، فقد تم ترميم المكان وترك آثار ملموسة للتذكير بتعصب داعش، رغم أن النظام نفسه [قصف](#) تدمر في 2012، لكنه قدم رواية مختلفة تماماً للأحداث، واستغل مع [الروس](#) ما قام به تنظيم الدولة لتلميع سمعتهم الملطخة بهدم



وبالتالي هذا الأمر يلفت انتباها إلى أن خطط إعادة الإعمار الحالية والمولدة جزئياً من جهات أجنبية، لا تستبعد فقط السوريين من جميع الطوائف والأحزاب والأعراق من عملية الترميم، أو حتى ما يعتبره الكثيرون الترميم من أجل أغراض دعائية، وإنما يقدم النظام التراث لصلاحة الأسد من خلال إظهار انتصاره وإزالة رواية معينة من التاريخ أو استبعاد طائفة بأكملها، الأمر ليس مجرد مقاومة الماضي أو تشويهه، إنما إعادة خلق روايات جديدة تعزز في نهاية المطاف شرعية النظام، لذلك يختار النظام ترميم أماكن معينة لدعم ادعائه خاصة في مدينة مثل حلب.



واجهة خان الشونة بحلب

لم يظهر نظام الأسد أي مشاعر تجاه التراث ولا يقدر العالم الثقافي للبلد، لكنه يستخدمها في كثير من الأحيان من أجل تعزيز هميته السياسية، ومن الأمثلة على ذلك، إعادة ترميم جامع خالد بن الوليد، أحد المساجد الشهيرة بحمص في حي ال Khalidiyah، والذي قصفه النظام في 2013.

وقد تم الآن إعادة ترميم المسجد بعد أن غيرت بعض معالله، وفي عام 2019، حضر مفتى الشيشان صلاح مجيف حفل افتتاح المسجد الذي بدا كأنه مهجور في مدينة أشباح، وقص مجيف الشريط

عند المدخل وكان وزير أوقاف نظام الأسد يقف بالقرب منه، كأن شيئاً لم يحدث، وكأن الأشخاص الذين اعتادوا الصلاة في المسجد، لم يقتلهم الأسد أو يهجرهم قسرياً.

حق العالم الأخرى التي أُعيد ترميمها، غُيّرت هويتها البصرية، وقد **أثر الحد** في أثناء ترميم جامع الأربعين بحمص، حيث جرى استبدال ألواح النوافذ المستطيلة بنوافذ ذات أقواس مدببة لتشبه الهندسة العمارة الإيرانية.



احتلال المدينة والرواية

وكما **حدّل** البعض، يمكن للحرب أن تدمر التراث الثقافي مرتين، في الصراع ثم في عملية الترميم، وذلك من خلال خلق هوية جديدة للموقع، أو محو جزء معين من الذاكرة الجماعية. ويلاحظ أن الإستراتيجية التي يتبعها النظام تقوم على أن كل شيء ملك للأسد وليس للمجتمع، بما في ذلك التأهف والمواقع الأثرية وما تحتويه، وما يلفت الانتباه هو الترويج للأسد باعتباره الوصي على الثقافة والإرث السوري.

وهذه ليست المرة الأولى التي استخدم فيها النظام تدمير التراث الثقافي كأداة لتحويل المشهد الاجتماعي والاقتصادي، واستخدام التخطيط الحضري لإعادة تشكيل مخططات عمرانية ومعمارية من أجل تمزيق وتشويه المدن القديمة وتعزيز السيطرة الاستبدادية وحذف جزء معين من الذاكرة الجماعية للمجتمعات الضعيفة.

لقد سبقت تلك الإبادة فصول أخرى في دورة تدمير التراث السوري، فقد محى حافظ الأسد أحياء

تاريجية بأكملها من مدينه حماه [1982](#) بعد المذبحه، ولم يكن الترميم الجديد خالياً من الدوافع والتأثيرات السياسية، وعلى حد [وصف](#) أحد سكان حماه في ذلك الوقت: "كنا نعلم أن الخسارة البشرية فادحة للغاية ولا يمكن تحملها، لكن تدمير تراث حماه التاريخي ترك جرحاً لن يتئم أبداً".



فكم هو الحال في حماه 1982، يستخدم بشار الأسد حالياً التراث وإعادة بناء النصب التذكاري القديمة أو المبنية حديثاً لفرض سرد تاريخي عنيف، وإذلال الأشخاص الذين آمنوا بالثورة، ومحو أي أثر جميل يدل على الأيام التي ثار فيها السوريون ضد حكم الأسد.

ويلاحظ هذا الأمر بوضوح من خلال استخدام الأماكن التي تجمع فيها الثوار، وإعلان انتصاره عليهم فيها أو لتغيير مسار الروايات التاريخية التي قد تسير خلاف ذلك، نذكر على سبيل المثال، كيف محا النظام ساحة [الساعة](#) القديمة بقلب حمص التي كانت تعتبر رمزاً للثورة، حيث سار المتظاهرون في أكبر اعتصام بهذه الساحة، فيما أن ساحة الساعة القديمة تمثل قصص الثورة والحلم والأمل ومصدراً للوحدة، فإن النظام محا هذا التاريخ من المكان وأعاد كتابة تاريخ جديد.

كذلك في أبريل/نيسان 2019 تم افتتاح نصب تذكاري في ريف حمص الشرقي، وفي أغسطس/آب 2019، تم تدشين [تمثال](#) للجندي السوري عند المدخل الجنوبي لحمص، وفي أكتوبر/تشرين الأول 2021، تم تدشين نصب تذكاري في المخرم الفوقاني بريف حمص الشرقي.



وكل موقع هذه الأنصبة والتماثيل الجديدة كانت مسرحاً للاحتجاجات الثوار مطلع عام 2011. وبالتالي اختيار النظام للموقع ليس فقط بمثابة تدمير أي شيء يساند ذاكرة الثورة بقدر ما هو تأكيد على انتصار النظام وتذكيراً للسوريين بأن لا أمل وأحلام لهم، وليس لديهم مكان للحداد أو حتى مجرد ذكرى التجمع والتضامن الجميلة.

ومن اللافت محو كل شعارات الثورة من الجدران، لتحل محلها صور بشار الأسد، كذلك، اللافتات حول قلعة حلب تظهر وجه الأسد وهو يحوم فوق سور القلعة. ولا تخلو شوارع هذه المدن المدمرة من صور وملصقات بشار، ومن السخرية، أنه كتب أسفل أحد البنرات عبارة "سوا منعمرها".



هذا بجانب فرض أنواع جديدة من الذكريات مثل الاحتفالات التي يقيمها النظام بمناسبة ما يعتبره استعادة المدن من الإرهابيين أو الذكرى السنوية لتحرير حمص وحلب من الإرهاب، ورغم تدشين هذه الأنثربية الحربية الجديدة التي تمجد رواية النظام، لا توجد نصب تذكاري للتئام الجروح، أو

حق حداد عام مسموح به للأشخاص الذين عانوا على يد النظام، بل تركت العائلات التي ما زالت تعاني آلام فقد والحزن للمعاناة النفسية.

بهذه الصورة القاتمة، يمكن القول إن إعادة ترميم تراث سوريا التي يتبعها النظام ليست وسيلة لإنهاء الصدمة والبؤس، وقد تكون أكثر دماراً من الحرب نفسها، لأنه في هذه الحالة جلب دماراً آخر، ليس فقط من خلال الاستيلاء على الثروة الثقافية وطمس معالم أماكن واستئصال الذاكرة والهوية دون رأفة، وإنما استخدام إعادة ترميم التراث كعقاب ضد السكان الذين عارضوا النظام.



يستخدم النظام إعادة الإعمار كوسيلة لكافأة تلك المناطق والأفراد الذين كانوا موالين له، بينما يواصل حمان الأحياء التي كانت تسيطر عليها المعارضة من البنية التحتية الأساسية والخدمات، بما في ذلك أحياء البياضة والوعر وكرم الزيتون، والأحياء المشابهة لها في شرق حلب التي دمرها الحصار السوري والروسي في عام 2016.

لكن في الوقت نفسه، يكافئ الأقليات التي يحتاجها لتعزيز سلطته، فعلى سبيل المثال، كانت جهود إعادة البناء المحدودة في حمص مقتصرة على الأحياء المسيحية في المدينة.

وفي دراسته “إعادة البناء.. من يتخذ القرار” يقول فريديريك ديكناتل: “تعكس نظرة حكومة الأسد إلى عملية إعادة البناء باعتبارها وسيلة دعائية وأداة لفساد النخبة، فهي تضع بسرعة الأولويات لـ سيتيم إعادة بنائه، وما لن تتم إعادة بنائه بحسب شروط الأسد.”

ولا يخفى النظام هذه الأجندة، فخطابات الأسد وتصريحاته تشير إلى الطريقة التي سيتم بها التعامل مع المدن والمناطق التي حاصرها سابقاً، وقد عبر صراحة عن رؤيته حين قال لجمع من أنصاره في دمشق عام 2017:

”خسرنا خيرة شبابنا وبنية تحتية كلفتنا الكثير من المال والكثير من العرق لأجيال، لكننا بالمقابل، ربحنا مجتمعاً أكثر صحة وأكثر تجانساً بالمعنى الحقيقي.”.

وبالتالي قد تؤدي عملية الإعمار إلى إعادة هندسة مناطق بأكملها من أجل التأكد من أنها لن تقاوم مرة أخرى، وهذه المرة ليست عن طريق القصف والتهجير، لكن عن طريق إعادة الإعمار.



تعتمد هذه الصور المنتشرة في المدن المنكوبة على رمزية الانتقام، وأن النصر ب نهاية المطاف سيذهب للأسد

لقد استخدم نظام الأسد تدمير المدن والتراث كسلاح، لكنه لن يستطيع إسكات التاريخ، وسيفشل ب نهاية المطاف في محو هذه الثقافة العظيمة من ذاكرة العالم بعد أن دمرها، والواقع أن الروس والصرب التزموا بنفس إستراتيجية الأسد، ومع ذلك، ساهم فقد التراث بالنسبة للبوشناق والألبان في تشكيل الهوية الجماعية بشكل أكبر من التراث الذي كان موجوداً قبل التدمير.



يعلمنا التاريخ أن الناس يجدون طريقة ما للتمسك ببيوتهم وتاريخهم وذكريات مدنهم، وسوريا بشكل خاص، لن تمحى قيمتها ومدنها بعد أن دمرها آل الأسد، بل من المبرر حقاً أن السوريين اليوم رغم كل الظروف الصعبة التي يمررون بها، يجمعون التبرعات لترميم مساجدهم التاريخية التي دمرها النظام، وهذا يدل في الواقع على قوة العلاقة بين المجتمعات المحلية السورية وتراثها الثقافي.

نشير أخيراً إلى أن ترميم التراث الثقافي السوري هو أهم وسيلة لإعادة ربط الإنسان بالمكان فضلاً عن كونه مصدراً للهوية وأداة قوية لإعادة بناء المجتمع وتحقيق الاستقرار ووحدة البلد وسكانه على الدور الطويل. دون الذاكرة والتراث الثقافي وفهم الماضي، لا يمكن أن يكون هناك مستقبل، لأن أولئك الذين لديهم روابط قوية وحية بماضيهم أفضل حالاً لتصميم مستقبلهم.

ومثلاً ما استخدم نظام الأسد تدمير التراث كسلاح، يمكن كذلك ترميم المكان والحفاظ عليه كأداة للتعافي، لكن من المهم أن نذكر أنفسنا بمدى قسوة الأسد، أي لا بد من إدراج ذكريات الثورة وال الحرب في إعادة بناء التراث، لا بد أن تخلد هذه الذاكرة وتدخل الوعي الجماعي، فتضمينها في الذاكرة جزء من عملية تعافي المجتمع، وعلى حد تعبير الراحل علي عزت بيجوفيتش: "عليكم أن لا تنسوا المجزرة مما حصل، لأن المجزرة التي تُنسى تتكرر"، وحق لا يُحکم غداً أن ما فعله بشار لم يكن إلا محاربة الإرهاب، مثلما حكم أبوه سابقاً حين استباح حماة 1982.

رابط المقال: <https://www.noonpost.com/203987>